التوحيد أصل الحسنات ومُحبطات السيئات: بيان الميزان الذي به قيام الدين ونجاة العباد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه على ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل التوحيد أصل الدين وأساس النجاة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم، خلق الخلق وقدَّر بينهم التفاوت، وفضَّل بعضهم على بعض، وفضَّل الأزمنة والأمكنة، وكذلك فضَّل الأعمال فجعل الحسنات متفاوتة، كما جعل السيئات متفاوتة، وهذا من تمام حكمته وعدله، ليبلو عباده أيهم أحسن عملاً.

وأصل هذا الباب أن الحسنات والسيئات ليست على مرتبة واحدة، بل هي متفاضلة، كما قال تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، فأخبر أن العبرة بحسن العمل لا بكثرته، والحسن إنما يكون بإخلاصه لله وموافقته لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فأعظم الحسنات وأصلها الذي تُبنى عليه وتُقبل به هو حسنة التوحيد، فإنها رأس الأمر وقطب رحاه، وهي التي من أجلها خُلقت الخليقة، وأُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}.

فالتوحيد هو أصل الحسنات كلها، ولا تُقبل حسنة بدونه، كما قال سبحانه: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون}، وقال تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين}، فدل على أن الشرك إذا دخل أفسد الأصل وأذهب العمل كله، فلم يبق معه حسنة تقبل.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على عظم شأن التوحيد وأنه أثقل شيء في الميزان، كما في حديث البطاقة المشهور، وفيه أن العبد يؤتى له بسجلات من السيئات ثم توضع له بطاقة فيها: لا إله إلا الله، فترجح بها، وهذا يدل على أن التوحيد أعظم الحسنات وزناً وأثراً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [فإن التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه],(مجموع الفتاوى 1/90).

فإذا تقرر أن التوحيد أصل الحسنات، عُلم أن ما دونه من الحسنات إنما يَكمل به ويُتم، فمن الحسنات ما يكفَر السيئات، كما قال تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات}، ومنها ما يرفع الدرجات، ومنها ما يثقل الميزان، ومنها ما يكون سبباً لدخول الجنة والنجاة من النار.

وقد تجتمع هذه المعاني في حسنة واحدة، كالصلاة والجهاد في سبيل الله، فإنها تكفِّر الذنوب وترفع الدرجات وتثقل الميزان، ومن الحسنات ما يتعدى نفعه إلى الغير، كتعليم العلم والدعوة إلى الله، لا سيما الدعوة إلى التوحيد، فإنها من أجلّ الحسنات، ولذا كان العلماء ورثة الأنبياء، لأنهم قاموا بهذا الأصل العظيم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: [الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب], (طبقات الحنابلة 1/33).

وإنما كان كذلك لأن العلم يهدي إلى التوحيد الذي به النجاة.

وكما أن الحسنات متفاضلة، فكذلك السيئات، وأعظمها وأخطرها الشرك بالله، فإنه الذنب الذي لا يغفره الله لمن مات عليه، كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وهو الذي يحبط العمل كله، فلا يبقى معه حسنة، لأنه أزال أصل الحسنات وهو التوحيد.

قال ابن القيم رحمه الله: [الشرك محبط لجميع الأعمال، فلا يبقى معه حسنة] (مدارج السالكين 1/344).

فإذا زال الأصل زال الفرع، وإذا فسد الأساس انهدم البنيان، ولهذا قال تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً}، وقال: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة}.

وأما ما دون الشرك من الذنوب، فمنها ما يُنقص الإيمان ويُضعف العمل، ومنها ما قد يحبط العمل الذي قارنه أو يُذهب أجره، كما جاء في الرياء، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}.

ومنها ما يكون له آثار في الدنيا قبل الآخرة، فإن للذنوب آثاراً وعقوبات، كما أن للحسنات آثاراً وبركات، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة وكلام السلف.

قال ابن القيم رحمه الله: [للمعاصي آثار قبيحة مذمومة، تضر بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة],(الداء والدواء ص 45).

فمن آثارها تسليط الأعداء، وذهاب البركة، ونقص الرزق، ووقوع القحط والجدب، وانتشار الأمراض، وضعف التوفيق، وكل ذلك داخل في قوله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم}، وقوله: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس}.

ومع ذلك فإن الله سبحانه من رحمته لا يؤاخذ العباد بجميع ذنوبهم، بل يعفو عن كثير، كما قال تعالى: {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة}.

ومن أعظم ما يُبين خطورة الشرك أن الله فطر الخلق على التوحيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((كل مولود يولد على الفطرة))، فدل على أن التوحيد هو الأصل في بني آدم، وأن الشرك طارئ عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [فإن أصل الفطرة التي فطر الله عليها عباده هي الإقرار بالله ومحبته], (مجموع الفتاوى 4/246).

فإذا انحرف العبد عن هذا الأصل، فقد ترك ما فُطر عليه، واتبع الشيطان، كما قال تعالى: {فاجتالتهم الشياطين عن دينهم}.

ولهذا كان أعظم ما يُنجي العبد بعد التوحيد حسنة التوبة والاستغفار، فإنها تجبر ما وقع من الخلل، وتمحو الذنوب، وقد قرنها الله بالتوحيد في مواضع، كما قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك}.

قال الحسن البصري رحمه الله: [أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة], (الزهد لابن المبارك ص 397).

فإذا اجتمع للعبد توحيد صادق وتوبة نصوح، فقد اجتمع له أصل الخير كله، وكان ذلك أعظم أسباب النجاة.

فينبغي للعبد أن يعتني بأصل الحسنات وهو التوحيد تحقيقاً وتصفيةً، وأن يحذر من أعظم السيئات وهو الشرك، وأن يجتهد في تكثير الحسنات وتكميلها، وأن يلازم التوبة والاستغفار، فإن العبد لا يخلو من تقصير، وإنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده.

نسأل الله أن يحيينا على التوحيد، وأن يميتنا عليه، وأن يجنبنا الشرك صغيره وكبيره، وأن يجعلنا من التوابين المتطهرين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.